التحالفات السياسية في الإسلام

أ.د.إبراهيم محمد أحمد البلولة*

مدخل:

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على رسول الله صلى الله عليه وسلم إمام المجاهدين وعلى من سار على هداه وعلى آله وصحبه .

إن الاتجاه السياسي العام في قريش يتحكم فيه معسكران، معسكر بني عبد الدار ومعسكر بني عبد مناف، وأن بقية القبائل القرشية لن يكون لأي منها شأن إلا بالانضمام لأحد المعسكرين وتقوم السياسة المكية على التحالفات المضادة ، ولكن ظل منهج التراضي والمساومة هو المنهج المتبع، والذي لم يصل التنازع درجات الاقتتال لأن ذلك سيضر بالمصالح الاقتصادية العليا التي يقوم عليها الكيان الاجتماعي أساساً، واستمر النزاع الداخلي ولكن لم يؤثر ذلك على المناخ السلمي الذي تقوم عليه التجارة القرشية.

وأن الجزء الأساسي من الدين الذي تهتم به قريش هو الكعبة لأن الكعبة صارت هي المنطقة الوحيدة في الجزيرة العربية المفتوحة دينياً لكل الأوثان والأجناس والأديان طالما أنها بيت الله.

وسُنت هدنة الأشهر الحرم لتسهيل الاتصال والتحرك والتبادل وأقرت حرمة المدينة وحفظها لها مجال جغرافي من حولها وجعل حرماً لحرمتها. وجعلت له حدود يعرف بها وأقرت حقوق المواطنة لأهل هذا الحرم.

* المركز الاسلامي الافريقي– جامعة افريقيا العالمية

وأنه بين خواء الوثنية وانقطاع الإبراهيمية ربما صار الدين الذي يدعو إليه سيدنا محمد صلي الله عليه وسلم هو الخيار الوحيد المفتوح أمام قريش إذا أرادت أن تتماسك داخلياً لتنهض كأمة وسط مستقلة عن الفرس والروم.

فما هو الخيار السياسي الذي يطرحه سيدنا محمد (ص) لإنقاذ قريش من التآكل الداخلي والتهديد الخارجي والخواء الروحي؟

فإن سيدنا محمد (ص) رجع بالمشكل إلى بدايته الأولى، وربط بين الظاهرة القرشية الآيلة للسقوط والمبدأ الإعتقادي الذي انطلقت منه بحيث أن ظواهر الاجتماع العشري لا يمكن أن تشخص عللها ويعرف مدى إنحرافها إلا بعد الإتفاق على إطار مرجعي تؤخذ منه المعايير وتصحح به المفاهيم ويسلم بالإحتكار إليه.هذا الإطار المرجعي الذي يدعو إليه سيدنا محمد (ص) هو دين سيدنا إبراهيم وإسماعيل الذي تُقِرْ به العرب وتعترف به، وهو آتيهم من هذا المدخل ليس تَكْتيكاً ولكن لأن هذا هو المدخل الأصولي لقضية الدين والمجتمع، فمن الأوفق البداية به قبل سائر المسائل الأخرى[1] وهو يأتيهم من هذا المدخل بالذات لأنهم كانوا يعتذرون بعدم وجود كتابٌ بين أيديهم يوضح لهم الدين الإبراهيمي.كما ذكر ذلك عنهم القرآن (وإن كانوا ليقولون لو عندنا ذكراً من الأولين لكنا عباد الله المخلصين)[2] فهذا هو الكتاب قد جاءهم وهو كتاب يتضمن أصل التوحيد الإبراهيمي ، ولننظر إلى هذه الآيات التي تؤكد هذا المعنى: (ثم أوحينا أن أتبع ملة إبراهيم حنيفاً و ما كان من المشركين)[3] ، (إن إبراهيم كان أمةً قانتاً لله حنيفاً ولم يك من المشركين)[4] ، (إني وجهت وجهي للذي فطر السماوات والأرض حنيفاً وما أنا من المشركين)[5] (فأقم وجهك للدين حنيفاً

فطرت الله التي فطر الناس عليها لا تبديل لخلق الله ذلك الدين القيم ولكن أكثر الناس لا يعلمون)[6].

وإزاء هذا الطرح كان ينبغي أن تكون النتيجة المنطقية الموضوعية هي أن يعود العرب لدين إبراهيم وللتمسك بالكتاب الذي فيه ذكرهم وذكر آبائهم وديانتهم التي كانوا يبحثون عنها، ولكن ذلك لم يحدث لأسباب موضوعية ، أخرى منها: أن الذي أتى بكتاب يحتج فيه بأحقيته لدين إبراهيم فإن ذلك ستُخوّل له السيادة على البيت الحرام الذي بناه إبراهيم وأن الذي سيتولى السيادة الدينية على البيت ستؤول إليه مقاليد الأمور السياسية في مكة وما جاورها من القرى، وأن السيادة إذا آلت لمحمد وهو من بني هاشم فإن ذلك يعني غلبة هذا المعسكر على معسكر بني أمية الذي يتزعمه أبو سفيان[7].

كانت إستراتيجية الرسول (ص) أن يطوق قريشاً من الخارج بالأحلاف وعقود الجوار ومعاهدات النصرة والتصديق، وذلك أن يضرب المصالح القرشية الاقتصادية، وبتقطيع شبكة التحالفات والعهود التي تعتصم بها قريش وتعتمد عليها ، كما أن تقطيع هذه الشبكة سيقود تلقاءً إلى إلى أحلاف جديدة ومن ثم إلى خلخلة الوضع الاقتصادي لقريش ومعه وضعها السياسي[8] ونذكر في هذا البحث بعض الأحلاف وآثارها في الإسلام التي ما زادتها الدعوة إلا شدة.

(أ)حلف المطيبين9:

والذي ذكره رسول الله صلى الله عليه وسلم بقوله(شهدت حلف المطيبين وما أحب أنا أنكثه وأن لي به حمر النعم)، وسموا المطيبون لأنهم غمسوا أيديهم في إناء فيه طيب ومسحوه بالكعبة دلالة على حلفهم.

(بـــ)حلف أبي طالب مع رسول الله (ص):

لابد من ذكر هذا الحلف لأنه انطلق في بداية الأمر من العرف الجاهلي ، وتم هذا الحلف يوم دعا رسول الله (ص) عشيرته وطلب منهم النصرة لدين الله ، وكان هذا الحلف بين المطيبين ، وثبت كل قوم مع من حالفوا فلم يزالوا على ذلك حتى جاء الله تعالى بالإسلام ، فقال رسول الله (ص):ماكان حلف في الجاهلية ، فأن الإسلام لم يزده إلا شدة[10].

لقد بقيت آثار حلف المطيبين قائمة في التوزيع القبلي بعد الإسلام ونذكر أثراً هاماً بقى في آثار المطيبين وذلك يوم فتح مكة، لما نزل رسول الله (ص) مكة وأطمأن الناس ، خرج حتى جاء البيت فطاف به سبعاً على راحلته، يستلم الركن بمحجن في يده، فلما قضى طوافه دعا عثمان بن طلحة فأخذ منه مفتاح الكعبة ففتحت[11] له ولا غرابة في ذلك ، فعثمان بن طلحة من بني عبد الدار و لهم سدانة البيت فماذا كان بعد ذلك.جلس رسول الله (ص) في المسجد فقام إليه علي بن أبي طالب ومفتاح الكعبة في يده فقال: يارسول الله اجمع لنا الحجابة مع السقاية صلى الله عليك، فقال رسول الله (ص) أين عثمان بن طلحة؟ فدعي فقال: (هاك مفتاحك يا عثمان، اليوم يوم برٍ و وفاء ، وهو درسٌ بليغ للدعاة ، بحيث يعرفون به قيمة العهد و الميثاق الذي يعطونه حتى و لو لم يكونوا هم الذين أبرموه إذا كان فيه رفع مظلمة أو دفع مأثمة.

(جـــ)حلف الفضول:

لقد قام حلف الفضول أصلاً على واقع حلف المطيبين، وقد ذكره رسول الله (ص) فقال:(لقد شهدت في دار عبد الله بن جدعان حلفاً ما أحب أن لي به حمر النعم ، ولو أدعى به في الإسلام لأجبت).

وأما طبيعة حلف الفضول، حيث تداعت قبائل قريش إلى حلف، فاجتمعوا له في دار عبد الله بن جدعان ....لشرفه وسنه، فكان حلفهم عنده . بنو هاشم، وبنو عبد المطلب، وأسد بن عبد العزى ، وزهرة بن كلاب، وتيم بن مرة، فتعاقدوا وتعاهدوا على أن لا يجدوا بمكة مظلوماً من أهلها وغيرهم ممن دخلها من سائر الناس إلا قاموا معه،وكانوا على من ظلمه حتى ترد عليه مظلمته ، فسمت قريش ذلك الحلف (حلف الفضول)، ومن نتائج حلف الفضول ما يأتي:

1/حلف الفضول قام على أساس قبلي، وحضره رسول الله (ص) بصفته فرداً من قبيلة بني هاشم قبيلته.

2/هدف هذا الحلف هو نصرة المظلوم على الظالم وإيصاله حقه له.

3/وأضفي عليه الصفة الشرعية،قول الرسول (ص)ولو أدعى به في الإسلام لأجبت.

4/وبقى بصيغته القبيلية في الإسلام مستثنى من كل الأحلاف السابقة لهذا النص النبوي الذي اختصه به.

5/غير أن أمثاله فيما يتعلق بنصر المظلومين، وحرب الطغاة تبقى قائمة في الإسلام استناداً إلى قوله عليه الصلاة والسلام:(كل حلف في الجاهلية لم يزده الإسلام إلا شدة).

6/ومن حق حركة الإسلام أن تحالف وتتحالف على التعاضد و التناصر في الحق ونصرة المظلوم والمستضعفين ، ومواجهة الطغاة الظالمين والمستبدين.

وأول ما فعله الرسول(ص) بعد نزول قوله تعالى (وأنذر عشيرتك الأقربين) بعد انتهاء المرحلة السرية التي استمرت ثلاث سنوات. أنه دعا بني هاشم فحضروا معهم نفر من بني عبد المطلب بن عبد مناف، فكانوا خمسة وأربعين رجلاً فبادره عمه أبو لهب وقال:هؤلاء بنو عمومتك وبنو عمك فتكلم و دع الصباة وأعلم أنه ليس لقومك بالعرب قاطبة طاقة ، وأنا أحق من أخذك فحسبك بنو أبيك ، وإن أقمت على ما أنت عليه فهو أيسر عليهم من أن يثب بك بطون قريش وتمدهم العرب. فما رأيت أحداً جاء على بني أبيه بشرٍ مما جئت به، فسكت رسول الله (ص) ولم يتكلم في ذلك المجلس، ثم دعاهم ثانيةً وقال الحمد لله أحمده و أستعينه ، وأؤمن به و أتوكل عليه وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ... ثم قال: إن الرائد لا يكذب أهله والله الذي لا إله إلا هو إني رسول الله إليكم خاصة ، وإلى الناس عامة والله لتموتن كما تنامون ولتبعثن كما تستيقظون ، ولتحاسبن بما تعملون، و إنها الجنة أبداً أو النار أبداً فقال أبو طالب: ما أحب إلينا معاونتك، وأقبلنا لنصيحتك، وأشد تصديقاً لحديثك، وهؤلاء بنو أبيك مجتمعون، وإنما أنا أحدهم غير أني أسرعهم إلى ما تحب فامضي لما أمرت به ، فو الله لا أزال أحوطك وأمنعك غير أن نفسي لا تطاوعني على فراق دين عبد المطلب فقال أبولهب:هذه والله السوأة، خذوا على يديه قبل أن يأخذه غيركم فقال أبو طالب :والله لنمنعنه ما بقينا [12].

هذه المرحلة الأولى التي أعلن فيها أبو طالب استعداده لمنع الاعتداء عن الرسول (ص) وحمايته بصفته زعيماً لبني هاشم.

أما المرحلة الثانية كانت يوم أن اشتدت الأزمة بين قريش وأبي طالب وأحس أبو طالب بضرورة المعركة فاستدعى الرسول (ص) للمناقشة في هذا الأمر وذلك كما أورده إبن إسحق في السيرة.

ثم إنهم مشوا إلى أبي طالب مرة أخرى فقالوا له: يا أبا طالب،إن لك سناً وشرفاً ومنزلةً فينا، وإنا قد إستنهيناك من ابن أخيك فلم تنهه عنا، وإنا و الله لا نصبر على هذا من شتم آبائنا وتسفيه أحلامنا ، وعيب آلهتنا، حتى تكفه عنا وننازله وإياك في ذلك حتى يهلك أحد الفريقين [13].

فالصورة الجديدة هنا تهديد بشن الحرب على أبي طالب إن استمر في حلفه وحمايته لابن أخيه ، فأراد أبو طالب أن يحدد هذه الحماية بأن يكف محمد (ص) عن شيء من دينه فاستدعاه وقال له: يا بن أخي إن قومك قد جاءوني فقالوا لي كذا وكذا كالذي كانوا له ، فابق عليّ وعلى نفسك ، ولا تحملني من الأمر ما لا أطيق، فظن رسول الله (ص) أنه قد بدا لعمه فيه بداء أنه خاذله ومسلمه وانه قد ضعف عن نصرته ، فقال رسول الله (ص):يا عم والله لو وضعوا الشمس في يميني و القمر في يساري على أن أترك هذا الأمر حتى يظهره الله أو أهلك دونه ما تركته ، ثم استعبر رسول الله (ص) فبكى، ثم قام فلما ولى ناداه أبو طالب فقال:أقبل يا بن أخي.فأقبل رسول الله (ص) فقال: إذهب يا بن أخي فقل ما أجببت ، فوالله لا أسملك لشيءٍ أبداً.[14]

أما المرحلة الثالثة التي انضم فيها بنو هاشم وبنو عبد المطلب صفاً واحداً لحماية رسول الله (ص) ومنعته وذلك بدعوة رسمية وجهت لهم من أبي طالب قال موسى بن عقبة عن ابن شهاب الزهري:

إنهم أجمعوا على أن يقتلوا رسول الله (ص) علانيةً فبلغ ذلك أبا طالب فجمع بني هاشم وبني عبد المطلب فأدخلوا رسول الله (ص) شعبهم ومنعوه ممن أرادوا قتله، فمنهم من فعل ذلك حميةً ومنهم من فعل ذلك يقيناً[15].

(د) حلف رسول الله (ص) والمطعم بن عدي:

كانت وفاة أبي طالب بعد نقض الصحيفة بستة أشهر، وقد قلبت وفاته الموازين كلها فكثير ممن كان يشارك في حماية رسول الله (ص) أو يمتنع عن إيذائه حرمة ومهابة لشخص أبي طالب ومع وفاته بدأ الاعتداء العنيف على النبي (ص) وبدأت محاولات قتله وكانت وفاة خديجة في العام نفسه، لذلك سمى العام العاشر من الهجرة عام الحزن ، وقد قال رسول الله (ص):ما نالت قريش مني شيئاً أكرهه حتى مات أبو طالب).

ولم يكن بمقدور عمه العباس رضي الله عنه أن يفعل فعل أبي طالب، إذ ليس له من المهابة والطاعة والمكانة ما كان لأخيه ، وفي لحظة عابرة تحركت النخوة في رأس عدو الله أبي لهب فقال لرسول(ص): أذهب يا ابن أخي، وما كنت تصنعه و أبو طالب حي فاصنعه.

وكان لهذا الموقف وقع الصاعقة على قريش فشرعت بذكائها لتدمير هذا الحلف ،ونجحت أيما نجاح عندما أوزعت إلى أبي لهب أن يسأل رسول الله (ص) عن عبد المطلب.

وكان رسول الله (ص) بين أمرين، والموقف حرج جداً ، فإما أن تستمر الحماية مقابل مهادنة بكلمة واحدة في دين الله ومساومة وإما أن تنهار الحماية كلها لو تحدث عن عبد المطلب بما لا يرضيهم ، وما كان لرسول الله (ص) أن يساوم على حساب العقيدة ولو كان ذلك حمايته ليبلغ هذه العقيدة ...

فقال لعمه أبي لهب مع قومه فخرج إليهما (أي أبي جهل وعقبة بن أبي معيط) فقال قد سألته فقال: مع قومه ، فقالا: يزعم أنه في النار، فقال يا محمد أيدخل عبد المطلب النار؟ فقال رسول الله (ص): و من مات على ما مات عليه عبد المطلب دخل النار.فقال أبو لهب: والله ما برحت لك عدواً أبداً وأنت تزعم أن عبد المطلب في النار، واشتد ذلك عند أبي لهب وسائر قريش عليه[16].

و أمام هذا التطور انتهى النبي (ص) إلى أن مكة لم تعد مكاناً آمناً لتبليغ الدعوة، وبدأ يبحث عن مكان آخر، واختار ثقيفاً في الطائف ، وقد أقام بين أهل الطائف عشرة أيام لا يدع أحداً من أشرافهم إلى جاءه وكلمه.فقالوا: أخرج من بلادنا، وأغروا به سفهاءهم كما هو معلوم، فعاد رسول الله (ص) متجهاً إلى مكة وسار حتى إذا دنا من مكة مكث بجبل حراء ، وبعث رجلاً من خزاعة إلى الأخنس بن شريف ليجيره، فقال أنا حليف والحليف لا يجير، فبعث إلى سهيل بن عمرو ، فقال سهيل إن بني عامر لا تجير على بني كعب، فبعث إلى المطعم بن عدي: أأدخل في جوارك ؟ قال: نعم. ثم تسلح ودعا بنيه وقومه فقال: ألبسوا السلاح وكونوا عند أركان البيت فإني أجرت محمداً ثم بعث إلى رسول الله (ص) أن أدخل فدخل (ص) ومعه زيد بن حارثة حتى انتهى إلى المسجد الحرام ، فقال المطعم بن عدي على راحلته فنادى يا معشر قريش إني أجرت محمداً فلا يهجيه أحداً منكم، وانتهى النبي (ص)إلى الركن فاستلمه ، وصلى ركعتين وانصرف إلى بيته ومطعم وولده محدقون به بالسلاح حتى دخل بيته[17]

وقيل إن أبا جهل سأل مطعماً: أمجير أنت أم متابع ؟ قال بل مجير. قال أبو لهب:قد أجرنا من أجرت.

التحالفات في مرحلة تأسيس الدولة:

بيعة العقبة الأولى:

ودّع رسول الله (ص) بني شيبان، ومر بعقبة مني فسمع أصوات رجال يتكلمون فعمد إليهم حتى لحقهم ، وكانوا ستة نفر، من شباب يثرب، كلهم من الخزرج ، وسألهم رسول الله (ص): من أنتم ؟ قالوا نفر من الخزرج. قال: أمن موالي يهود؟ قالوا نعم. قال: أفلا تجلسون أكلمكم ؟ قالوا: بلى، فجلسوا معه، فدعاهم إلى الله وعرض عليهم الإسلام، و تلا عليهم القرآن وكان مما صنع الله به من الإسلام أن يهوداً كانوا معه في بلادهم ، كانوا أهل كتاب وعلم ، وكانوا هم أهل شرك وأصحاب أوثان، وكانوا قد غزوهم في بلادهم، فكانوا إذا كان بينهم شيء قالوا لهم: إن نبياً مبعوث الآن، قد أطل زمانه نتبعه فنقتلكم معه قتل عاد وإرم.

فلما كلم رسول الله (ص) أولئك النفر ودعاهم إلى الله، قال بعضهم لبعض يا قوم تعلمون والله إنه للنبي الذين الذي توعدكم به يهود ، فلا يسبقكم إليه ، فأجابوه بان صدقوا وقبلوا ما عرض عليهم من الإسلام[18] فقال لهم النبي (ص) أتمنعون ظهري حتى أبلغ رسالة ربي؟ فقالوا: يا رسول الله إنما كانت بعثات عام الهول يوماً من أيامنا اقتتلنا به فإن تقدم ونحن كذا لا يكون عليك اجتماع، فدعنا حتى نرجع إلى عشائرنا لعل الله يصلح ذات بيننا وندعوهم إلى ما دعوتنا إليه، فعسى الله أن يجمعهم عليك، فإن جمعهم عليك فإن جمعهم و اتبعوك فلا احد أعز منك وموعدك الموسم القادم وانصرفوا إلى المدينة[19].

انتظر رسول الله (ص)عاماً كاملاً على الموعد الذي تم بينه وبين النفر الستة من الخرزرج، وتم لقاء جديد في العقبة أطلق عليه فيما بعد– بيعة العقبة الأولى – وهو كما رواه ابن إسحق:(حتى إذا كان العالم المقبل وافى الموسم من الأنصار أثنا عشر رجلاً، فلقوه بالعقبة وهي العقبة الأولى، فبايعوا رسول الله (ص) على بيعة النساء وذلك قبل أن تفرض عليهم الحرب...)[20].

ومن نتائج هذه البيعة ما يلي:

1–اتجه الخط السياسي الإسلامي كله للبناء الداخلي. والتركيز على يثرب بالذات ولقد كان لهؤلاء النفر الستة دور كبير في بث الدعوة إلى الإسلام خلال هذا العام.

2– حضر بيعة العقبة الأولى اثنان من الأوس ، وهذا تطور خطير لمصلحة الإسلام ، فبعد الحرب العنيفة في بعاث استطاع النفر الستة من الخزرج أن يتجاوزوا قصه الصراعات الدموية الداخلية واحضروا معهم مجموعه أخرى فيهم اثنان من الأوس ، وهذا يعنى أنهم أوفوا بالتزاماتهم التي قطعوها على أنفسهم في محاولة رأب الصدع ، وتوجيه التيار لدخول الإسلام في المدينة أوسها وخزرجها وتجاوز الصراعات القبلية القائمة.

3– التطور الجديد الذي أثمرته بيعة العقبة بعث مصعب بن عمير ممثلاً شخصياً للرسول (ص) إلى المدينة ، يشرف على تطور الموقف ، ويفقه المسلمين بهذا الدين الجديد ، و كل هذا ضمن النشاط الفكري والسياسي والاتجاه للتعبئة وتكوين الأنصار المعتنقين لهذه العقيدة.

4– واستطاع الدبلوماسي الإسلامي الأول في المدينة بحكمته وحصافته وذكائه السياسي أن يجر اكبر قيادات الأوس للإسلام ، أسيد بن حضير وسعد بن معاذ

، خلال العام الجديد ، ولم يبقى في بني عبد الأشهل – بطن كبير من الأوس – رجل ولا امرأة ولا طفل إلا و دخل في الإسلام.

5- لقد أصبح التيار عارماً ، والاتجاه معبأ لقيام الدولة الإسلامية في المدينة ، وهذا ما خطط له رسول الله (ص) بعد أن بذل كل ما يملك من جهد لتعبئة الطاقات الإسلامية في المدينة ، ولم يكن هنالك أدنى تقصير في الجهد البشرى الممكن في بناء القاعدة الصلبة التي تقوم على أكتافها الدولة الجديدة واحتمل هذا الجهد سنتين كاملتين من الدعوة والتنظيم.

6- وصل مصعب رضي الله عنه إلى مكة قبيل الموسم الثالث عشر للبعثة ، ونقل الصورة الكاملة التي انتهت إليها أوضاع شباب الإسلام هناك ، والقدرات والإمكانات المتاحة ، وكيف تغلغل الإسلام في جميع قطاعات الأوس والخزرج وأن القوم جاهزون لبيعة جديدة قادرة على حماية رسول الله (ص) ومنعته.

7- وكان اللقاء الذي غير مجرى التاريخ في موسم الحج في السنة الثالثة عشرة من البعثة حيث حضر لأداء مناسك الحج بضع وسبعون فرداً من المسلمين من أهل يثرب ، فلما قدموا مكة جرت بينهم وبين النبي (ص) اتصالات سرية أدت إلى اتفاق الفريقين على أن يجتمعوا في أوسط أيام التشريق في الشعب الذي عند العقبة حيث الجمرة الأولى من منى ، وأن يتم هذا الاجتماع في سريه تامة في ظلام الليل.

بيعة العقبة الثانية :

يقول كعب بن مالك وهو أحد قادة الأنصار رضي الله عنه : خرجنا إلى الحج و واعدنا رسول الله (ص) بالعقبة من أوسط أيام التشريق... فنمنا تلك الليلة مع قومنا في رحالنا ، حتى إذا مضى ثلث الليل خرجنا من رحالنا

...فاجتمعنا في الشعب ننتظر رسول (ص) حتى جاءنا ، ومعه عمه العباس بن عبد المطلب – وهو يومئذ على دين قومه إلا أنه أحب أن يحضر أمر ابن أحيه ، ويتوثق له ، وكان أول متكلم فقال : يا معشر الخزرج – وكان العرب يسمون الأنصار خزرجاً و أوسها كليهما – أن محمداً منا حيث قد علمتم ، وقد منعناه من قومنا ممن هو على مثل رأينا فيه ، فهو في عزٍ من قومه ، ومنعة في بلده . وإنه قد أبى إلا الانحياز إليكم واللحوق بكم ، فإن كنتم ترون أنكم وافون له بما دعوتموه إليه ، ومانعوه ممن خالفه ، فأنتم وما تحملتم من ذلك ، وإن كنتم ترون أنكم مسلموه وخاذلوه بعد الخروج به إليكم فمن الآن فدعوه ، فانه في عزة ومنعة من قومه وبلده – قال كعب : فقلنا له : قد سمعنا ما قلت ، فتكلم يا رسول الله فخذ لنفسك ولربك ما أحببت ... وألقى رسول الله (ص) بعد ذلك بيانه وتمت البيعة.

وبعد أن تمت البيعة طلب رسول الله (ص) انتخاب اثني عشر زعيماً يكونون نقباء على قومهم يكفلون المسؤولية عليهم في تنفيذ بنود هذه البيعة، فقال للقوم: أخرجوا إليّ منكم اثني عشر نقيباً ليكونوا على قومهم بما فيهم فتم انتخابهم في الحال ، وكانوا تسعة من الخزرج ، وثلاثة من الأوس ، و لما تم انتخابهم أخذ عليهم النبي ميثاقاً آخر بصفتهم رؤساء مسئولين، قال لهم : أنتم على قومكم بما فيهم كفلاء ككفالة الحواريين لعيسى ابن مريم وأنا كفيل على قومي – يعني المسلمين – قالوا : نعم .

التحالف عند تأسيس دولة المدينة :

دخل رسول الله (ص) المدينة وهى ذات طوائف عدة قبلية و دينية شائكة ، فكتب كتاباً بين المهاجرين والأنصار وادع فيه يهود وعاهدهم و أقرهم على دينهم وأموالهم وشرط لهم وأشترط عليهم ، ويمكن أن نقسم الميثاق إلى أربعه أبواب:

الأول: ميثاق المؤاخاة بين المسلمين

الثاني: ميثاق التناصر بين المسلمين وأتباعهم من غيرهم.

الثالث: ميثاق التحالف بين المسلمين وغيرهم من الفئات المتميزة.

الرابع: أحكام عامه.

ومن ملاحظاتنا العامة على هذه الوثيقة:

1- اعتبر الميثاق المهاجرين كتله واحده دون التفريق بين عربي وغير عربي ، وقرشي وغير قرشي.

2- اعتبر الأوس كتله واحده دون التعرض لاختلاف قبائلهم .

3- هنالك تفريق بين استعمال كلمتي "يهود" و"اليهود" في الميثاق كلمة يهود تعنى قبائل اليهود الكبرى وتجمعاتهم : بني قينقاع ، بني النضير ، بني قريظة ، لكل تجمع منهم أراضيه وحصونه. وكلمة يهود تتناول من تهود من قبائل العرب وشكلوا تجمعات صغيره لكنها بقيت على ولائها العام للقبيلة ، و تساكنها في أرضها.

4- بعض أفراد اليهود لم ينضموا لقبيلة معينة بل كانوا متناثرين في أماكن شتى

5- كان التجمع الكبير هو الخزرج، ولكل قبيلة حكمها بما فيها من مسلمين ومشركين.

التحالف بعد تأسيس الدولة :

الوضع في المدينة قد مر بأربعة مراحل:

المرحلة الأولى:

رغم المعاهدة التي تمت بين الرسول صلى الله عليه وسلم وبين اليهود والمشركين (وثيقة المدينة) فإن قريشاً راحت تبعث بتهديداتها ووعيدها للأوس والخزرج وذلك على محورين:

المحور الأول: في محاولة يائسة لبث الوهن في صفوف الأنصار على أمل التخلي عن مساندة الرسول صلوات الله وسلامه عليه، عندما كتب أبو سفيان بن حرب وأبيّ بن خلف إلى الأنصار:

أما بعد: فانه لم يكن حي من أحياء العرب أبغض إلينا أن يكون بيننا وبينهم ثائرة منكم، وإنكم عمدتم إلى رجل منا، أشرفنا في الموضع، وأعرقنا في قومنا منصباً، فآويتموه ومنعتموه، إن هذا عليكم لعار ومنقصة، فخلوا بيننا وبينه، فإن يك خيراً فنحن أسعد به، وإن يك سوى ذلك فنحن أحق من وَلِيَ ذلك منه ، فكتب إليهما كعب بن مالك بهذا الشعر في يوم أحد، وذكر أسماء النقباء:

أبلغ أبياً أنه قال رأيه وحان غداة الشعب والحين واقع
أبي الله ما منتك نفسك إنه بمرصاد أمر الناس راء وسامع
وأبلغ أبا سفيان أن قد أمناء لنا بأحمد نور من هدى الله ساطع
فلا ترعين في حشدٍ أمر تريده وألِّب وجمِّع كل ما أنت جامع
ودونك فأعلم أن نقد عهودنا أباه عليك الرهط حين تتابعوا[21]

المحور الثاني: كان مع كفار المدينة وكان يقودهم عبد الله بن أبي سلول قبل أن يُعلن إسلامه إذ (أن كفار قريش كتبوا إلى عبد الله بن أبي سلول ومن كان يعبد

معه الأوثان من الأوس والخزرج، ورسول الله صلى الله عليه وسلم، يومئذٍ بالمدينة قبل غزوة بدر:

إنكم أويتم صاحبنا، وإنكم أكثر أهل المدينة عدداً، وإنا بقسم بالله لنقتلنه أو لنخرجنه، أو لنستعين عليكم بالعرب، ثم لنسيرن إليكم جمعنا حتى نقتل مقاتلتكم ونستبيح نساءكم.[22]

أما التهديد الأول من قريش فقد واجهه الرسول عليه الصلاة والسلام بسبع بعوث بين غزوة وسرية كلها لمهاجمة عير قريش، وقطع الطريق عليها، وبذلك حدد هدفه المباشر وهو الحرب المُعلنة ضد قريش بالذات دون أن يفتح أيه جبهة أخرى غير هذه الجبهة.

أما الخطة الثانية قبيل بدر، فكانت إقدامه على معاهدة جهينة وحلف بني مدلج وحلفائهم من بني ضمرة وكانت هذه القبيلة منتشرة على ساحل البحر في الطريق إلى الشام، مع جهينة. وأقام علائق ود وحسن جوار مع جهينة. إذ أن مجدي بن عمرو الجهني الذي حجز بين حمزة بن عبد المطلب وقريش في أول لقاء بينهما.

وبهذه العلاقات الممتازة مع جهينة ضمن الرسول عليه الصلاة والسلام جهينة أن لا تنحاز إلى مكة، بل تقيم أوثق العلاقات معه بعد أن كانت على الحياد.

واكتفي عليه الصلاة والسلام بهذا الحد مع جهينة، لكنه لم يكتفي بذلك مع بني ضمرة إذ أقام حلفاً رسمياً معهم، وذلك على رأس سبعة عشر شهراً قبيل غزوة بدر.

ونلاحظ سمات هاتين المرحلتين بما يلي:

1- التحرك العسكري كان يهدف قطع الطريق على تجارة قريش، ولو أدى ذلك على صدام مسلح، وهي العدو الأوحد في هذه المرحلة.

2- نقاط الاحتكاك المتوقعة كانت على ساحل البحر عند القبيلتين جهينة و ضمرة، واستطاع عليه الصلاة والسلام أن يحيد الأولى ويحالف الثانية.

3- والملاحظ أيضاً أن بقية القبائل لم تكن آبهة بهذه الحروب، ولم تعرها التفاتا وبالتالي لم تكن مضطرة لتحديد موقف، إذ كان أكبر تحرك في الساحة لا يعدو سبعين رجلاً خلال هذه البعوث السبعة، ولم تكن لقاء جيش لجيش بمقدار ما كانت حرباً اقتصادياً، تريد أن تقطع طريق الشام على قريش، وهذا يفسر لنا حياد هذه القبائل وكأن الأمر لا يعنيها من قريب أو بعيد.

4- والملاحظة الأُخرى أن الأرض التي تجاور الدولة المسلمة وسكانها هم المعنون قبل كل شيء، أما الأبعدون، فلا داعي، لاستنزاف الجهد والوقت طالما أن الاطمئنان قائم من جانبهم، وأهم ما يهم الدولة المسلمة أن تملك الأرض التي تتحرك منها و أرض الحليف المجاور الذي يعينها وأن يكون سنداً لها، أما لو كان بعيداً فيبقى أثره المادي ضعفاً غير ذي جدوى أو عناء.

5- وآخر ما نلحظه في هذه المرحلة هو أن المهاجرين هم عماد هذه الحركة، فهم من جهة أدرى ببني جلدتهم من أهل مكة، ومن جهة ثانية هم الموتورون الثائرون الذين ظُلموا وأُخرجوا من ديارهم بغير حق، ومن جهة ثالثة ، فلم تنص بيعة العقبة الثانية إلا على الحماية في المدينة مما يحمون أزرهم وأولادهم وأموالهم، ومن جهة رابعة هم خبراء الطريق نفسه إذ هم تجار مثل قريش، وطريق الشام هو أحد الشريانين اللذين يغذيان مكة من جوع وسغب.

المرحلة الثانية :

وقد امتدت هذه المرحلة أربعة سنوات تقريباً منذ انتهاء غزوة بدر الكبرى وحتى صلح الحديبية والسمة الأساسية في هذه المرحلة هي نقض الحلفاء عهودهم من اليهود ، و بناء أحلاف جديدة ، وكانت هذه المرحلة هي شديدة الوقع على المسلمين لانفتاح أكثر من جبهة عليهم ، غير أن عبقرية الرسول (ص) ذللت هذه المخاطر ، وفتتت هذا التلاحم.

ومن هذه المنطلقات يصدر الحكم على قضية التحالف أو الصلح مع المشركين والمسلمون دوله وأهم هذه المنطلقات :

1- رغم التميز والمفاضلة والدعوة إلى حرب المشركين ومواجهتهم ، فمفهوم الصلح أو التحالف جائز حيناً ، و واجب حيناً آخر ، إذا اقتضته مصلحة الدولة والجماعة المسلمة.

2- التعامل مع العدو وتحويله إلى مهادن أو صديق محالف لا يتناقص كذلك مع مفهوم مجاهدة المشركين.

المرحلة الثالثة :

مثلت هذه المرحلة في الدولة المسلمة مرحلة الاعتراف الرسمي بها، من خلال اكبر خصومها قريش ، ورافق هذا الاعتراف صلح الحديبية، وتغييراً في خارطة التحالف على الأرض العربية.

ولم يتغير موقف النبي صلى الله عليه وسلم من التحالف في مرحلة الدعوة أو مرحلة الدولة لأنه ينطلق من نصر المظلوم والكف على يد الظالم ، والعمل على إنهاء الظلم ما أمكنه الأمر من ذلك.

المرحلة الرابعة :

وهى عند نزول سورة براءة ، فلابد من القول في البداية أن هذه السورة نزلت والمسلمون في أوج قوتهم وذلك بعد فتح مكة بعام ، وقد سقطت في جزيرة العرب كل القوى المعادية للمسلمين فهي تمثل الوضع النهائي الذي تؤول له المعاهدات والتحالف في الإسلام.

إجلاء أهل الكتاب من الجزيرة العربية:

ولقد وردت أحاديث كثيرة في إجلاء أهل الكتاب من الجزيرة العربية منها:

1- عن جابر – رضي الله عنه– أن عمر بن الخطاب –رضي الله عنه – قال: قال رسول الله (ص): (لئن عشت لأخرجن اليهود والنصارى من جزيرة العرب حتى لا أترك فيها إلا مسلماً " رواه مسلم في صحيحه [23] .

2- عن أبي عبيده بن الجراح – رضي الله عنه – قال : آخر ما تكلم به رسول الله (ص): (أخرجوا يهود أهل الحجاز وأهل نجران من جزيرة العرب)، رواه أحمد والبيهقي في سننه[24].

3- وعن عائشة – رضي الله عنها – قالت : آخر ما عهد رسول الله (ص) أن قال : (لا يترك بجزيرة العرب دينان) رواه أحمد في مسنده[25].

ثبت في الأحاديث أعلاه حكم رسول الله (ص) في إخراج أهل الكتاب من الجزيرة العربية ، وثبت ذلك في أقواله (ص) أمراً بإخراجهم ومخبراً بأنه لو عاش لأخرجهم وناهياً ومحذراً أن يترك أو يجمع في الجزيرة العربية دينان،أما فعله (ص) فانه لم يثبت منه إلا تطهير المدينة المنورة منهم فقط إذا كان في المدينة ثلاث قبائل يهودية محيطة بالمدينة هي قبيلة بني النضير ، وبني قينعناع ، وبني قريظة ، ولم يكن ناوياً إخراجهم من المدينة بل عاهدهم ووادعهم على أن يعيشوا مع المسلمين آمنين متعاونين في الدفاع عن المدينة.

لكن هذه القبائل كانت تتحين الفرص وغدرت برسول الله (ص) الواحدة تلو الأخرى وكل قبيلة كان غدرها عقب غزوة من غزوات رسول الله (ص) الشهيرة ظناً منها قد وجدت الفرصة للقضاء عليه وأنه في حالة ضعف . فأجلى قبيلة بني قينقاع – عقب غزوة بدر الكبرى – إلى أدرعان ثم بعدهم نقضت قبيلة بنو النضير عهدهم في أقل من سنة بعد قبيلة بنو قينقاع واستعدوا لحرب رسول الله (ص) وقد كان وعدهم رأس المنافقين عبد الله بن أبي سلول أنه سيجهز لهم من أصحابه ألفين يدخلون معهم ويموتون دونهم وكذلك وعدهم حلفاؤهم من غطفان أنهم سيكونون معهم أن وقعت حرب بينهم وبين المسلمين وحاصرهم رسول الله (ص) بجند الله حتى نزلوا على حكمه وأجلاهم إلى خيبر ولم ينفعهم حلفاؤهم ولم يقدموا لهم شيئاً وقد سجل الله سبحانه وتعالى هذه الواقعة في سورة الحشر . وقد أجلاهم الرسول (ص) بعد غزوة أحد على الأرجح[26] ثم كان آخرهم نقضاً على للعهد بنو قريظة فقد غدروا برسول الله (ص) لما تجمع عليه أعداؤه من قريش وغطفان ومن شايعهم وتحزبوا لإبادة المسلمين ، فلما رأت قريظة كثرة أعداء المسلمين ظنوا أنهم منتصرون فتمالؤوا معهم ونكثوا عهدهم وهزم الله الأحزاب ورجع رسول الله (ص) بالمهاجرين والأنصار سالمين غانمين وأمره الله سبحانه وتعالى بالمسير إلى بني قريظة لمحاسبتهم على فعلتهم الشنعاء فذهب هو وأصحابه وأحاطوا بأعداء الله وحاصروهم حتى نزلوا على حكم سعد بن معاذ الصحابي الأنصاري فحكم فيهم بحكم الله أن تقتل المقاتلة وتسبى النساء والذرية فنفذ رسول الله (ص) هذا الحكم لما رآه موافقاً لحكم الله[27] وكان عقابهم أشد ممن سبقهم لان عملهم كان أشد وأنكى.

أما النصارى الذين كانوا في الجزيرة العربية فإنهم لم يُجلوا في عهده (ص) بل انه صالحهم على أن يدفعوا الجزية وصالح أهل نجران من النصارى على ألفي حله النصف منها في صفر والبقية في رجب يؤدونها إلى المسلمين وشرط عليهم شروطاً التزموا بها إلى أيام عمر[28] واخذوا الجزية من مجوس هجر والبحرين ولم يجلهم[29].

أما سيدنا أبو بكر الصديق رضي الله عنه لم نجد شيئاً عنه يدل على أنه أجلى أحداً من اليهود أو النصارى أو المجوس من الجزيرة العربية إلا ما نقله الشوكاني في كتابه نيل الأوطار عن أبى عبيده أن أبابكر قد أخرج قوماً إلى خيبر[30].

ولعل سيدنا أبوبكر الصديق رضي الله عنه لم تثبت عنده وصية رسول الله (ص) بإخراج أهل الكتاب من الجزيرة أو لم يتفرغ لإخراجهم بسبب انشغاله بما هو أهم وهو حروب المرتدين ثم مواجهته دولتي فارس والروم وقد كانت مدة خلافته قصيرة ومليئة بالأمور العظام.

أما سيدنا عمر الفاروق رضي الله عنه فقد اتخذ معهم سياسة جديد لأسباب توافرت عنده ، فقد كان بداية في خلافته يعاملهم معاملة رسول الله (ص) وأبي بكر لهم وزاد على ذلك أن جعل لفقرائهم نصيباً من أموال الصدقات ، وكان يعاملهم بالرفق والعدل وحتى شاء الله إخراجهم من الجزيرة العربية أخرجهم الفاروق غير مظلومين في أموالهم ولا أنفسهم ولا أعراضهم بل نفذ فيهم ما ثبت عنده من وصية رسول الله (ص) بإخراجهم ثم ما حصل منهم من أسباب أخلت بالشروط التي قبلوها على أنفسهم وما حصل منهم من عدوان على بعض المسلمين[31].

الخاتمة :-

مما سبق ذكره في هذا البحث يتضح لنا أن التحالفات السياسية كان لها الأثر الكبير في سير حركة الإسلام في عهد الرسول (ص) و في بناء دولته في المدينة ، كان ذلك لحكمته (ص) ومعرفته للعرف العربي ومزاجهم السياسي والاجتماعي خاصة في مسألة الإجارة التي اتبعت الرسول (ص) في البحث عن من يجيره بعد وفاة عمه أبى طالب.

ومن مقادير الله عز وجل أن تتولى مواقف أعمامه تكون له السند في مراحل مختلفة من هذه المواقف حيث ساقت النخوة القبلية وقرابة الرحم عمه أبو لهب بعد وفاة عمه أبو طالب بتصريحه بأن يمضى الرسول (ص) في أمره كما كانت الحالة في عهد عمه أبو طالب ، والموقف الثاني عندما استخدم الرسول (ص) عمه العباس وهو ليس على دين الله في بيعة العقبة فقوى هذا الحلف وذلك بخطبة عمه العباس الشهيرة التي وضح فيها بأن الرسول (ص) بقبيلته وبنو عمومته تمتيناً لهذا الحلف وهذه واحدة من حِكَم الرسول (ص) وهكذا معنى الرسول (ص) يسوق في حركته القبائل والبيوت سَوقاً نحو بناء الدولة التي يريد إقامتها وتقويتها ، وهكذا سار الخلفاء الراشدون من بعده تأسياً برسول الله (ص) نحوا نفس المنحى في أحلافهم وسياساتهم في إدارة دولة الإسلام ، وبهذا كان واضحاً أثر التحالفات السياسية في سير الدعوة الإسلامية .

ورغم كل محاولاتنا في توضيح هذا الموضوع إلا أنه في حاجة إلى مواصلة هذا البحث وتتبع التحالفات السياسية وأثرها في الإسلام ما بعد الخلفاء الراشدين وحتى يومنا هذا وفي الموضوع سعة ولكننا نكتفي بهذا القدر ونسأل الله القبول.

المراجع :

1- القرآن الكريم.

2- التجاني عبد القادر،العلاقات الدولية وأثرها على دولة الرسول(ص) المركز الحقوقي للإنتاج الإعلامي،الخرطوم1995م.

3- السيرة النبوية لإبن هشام 411/2 وهي رواية محمد بن الزبير (ثقة) عبد الله بن عبد الله بن أبي ثور (ثقة)عن صفية بنت شيبة ولها صحبة.

4- البداية والنهاية لإبن كثير عزاه إلى الحافظ بن الفرج الجوزي بسنده عن ثعلبة بن صعد وحكيم بن حزام 147/30–148.

5- مصنف عبد الرازق ج 5 رقم 7933 وسنن أبي داؤود 23/19 ووفاء الوفاء السمهودي،ص298،عن عبد الله بن حميد في تفسيره.

6- السنن الكبرى للبيهقي ج9 :ص207 ونيل الأوطارج 8 ص73 وقال رواه أحمد ومسلم والترمزي وصحيحه.

7- السنن الكبرى للبيهقي ج9 :208ونيل الأوطار ج8: 73 ومجمع الزوائد ومنبع الفوائد لنورالدين علي بن أبي بكر الهيثمي 807هـ .

8- غالب عبد الكافي القرشي ، أولويات فاروق السياسية ، المكتب الإسلامي بيروت،عام1983م.

الهوامش والمصادر :

1 التجاني عبد القادر،العلاقات الدولية وأثرها على دولة الرسول.

2 سورة الصافات الآية 167–169

3 سورة النحل الآية 123

4 سورة النحل الآية 12

5 سورة الأنعام الآية 79

6 سورة الروم ،الآية 30

7 التجاني عبد القادر ،العلاقات الدولية (أثرها على دول الرسول)المركز الحقوقي للإنتاج الإعلامي ،الخرطوم1995م ص021

8 التجاني عبد القادر مصدر سابق ص(69).

9 المطيبون هم خمس قبائل:عبد مناف، وزهرة ، وأسد بن عبد العزة، بيتم والحارث بن فهر.وسموا المطيبون لأنهم غمسوا أيديهم في إناء فيه طيب ومسحوه بالكعبة دلالة على حلفهم.

10 السيرة النبوية لإبن هشام 132/1

11 السيرة النبوية لإبن هشام 411/2وهي رواية محمد بن جعفر بن الزبير (ثقة)عبد الله إبن عبد الله بن إبي ثور (ثقة)،عن صفية بنت شيبة ولها صحبة.

12 نقلاً عن كتاب السيرة الحلبية 458/1–459

13 السيرة النبوية لإبن هشام 265/1

14 المصدر السابق 266/1.

15 عن السيرة النبوية لعبد الله بن محمد بن عبد الوهاب،دار العربية ص93.

16 البداية والنهاية لابن كثير عزاه إلى الحافظ بن الفرج الجوزي بسنده عن ثعلبة بن صعد وحكيم بن حزام 147/30–148.

17 الطبقات الكبرى لابن سعد142/1.

18 السيرة النبوية لإبن هشام 428/1–429.

19 السيرة النبوية لعبد الله بن محمد بن عبد الوهاب ص 135.

20 السيرة النبوية لإبن هشام 431/1.

21 عن الوثائق النبوية، ص69 عن الحبر لابن حبيب، ص271ـــ 273.

22 مصنف عبد الرازق ح 5 رقم 7933 وسنن أب داؤود 23/19 ووفاء الوفاء للسمهودي ،ص 298 عن عبد الله بن حميد في تفسيره

23– السنن الكبرى للبيهقي ج 9:ص207ونيل الأوطار ج 8:ص 73 وقال رواه أحمد ومسلم والترمذي وصحيحه.

24 –السنن الكبرى للبيهقي ج9 :208ونيل الاوطارج8 : 73 ومجمع الزوائد ومنبع الفوائد لنور الدين علي بن أبي بكر الهيثمي ت807هـ. ج 5 :325.ط2.

25 – نيل الاوطارج8:ونص الآية ج3: 545 وهو حديث صحيح كما قال الدارقطني.

26 – فتح الباري ج 8 :332.

27 –زاد المعاد ج2: 72 ، وفتح الباري ج 8 : 408–416.

28- زاد المعاد ج2: ص 80 والأحوال لأبي عبيد ص 244- 245.

29 المرجع السابق ج 2 ص 81.

30 – نيل الأوطار ج 8 : ص 74.

31 غالب عبد الكافي القرشي،أولويات فاروق السياسية،المكتب الإسلامي، بيروت1983 ص 223.